

عن القدس وفلسطين (وعاءها الجغرافي)

عندما نريد أن نتكلم عن القدس ، تتزاحم الموضوعات ، ولا نثق بصواب ما نبدأ به وما ننتهي ، ولا بأدنا قد أشرنا إلى ما ينبغي الإشارة إليه في غالب الظن .

القدس بالنسبة لنا موضوع دين - أو أدیان - ووطن وتاريخ وثقافة ، هي ماض وحاضر ، وهي مستقبلنا أيضا ، وفلسطين هي وعاء القدس وحاملتها . بل إن القدس هي هوية فلسطين ، وهي من أعطاهها الغالب الأعم من صبغتها وأهميتها ، ليست القدس مدينة في وطن هو فلسطين ، ولكن فلسطين وطن في مدينة هي القدس . إن فلسطين بغير القدس لا تكون أكثر من سيناء مصر أو جولان سوريا أو شريط حدود لبنان الجنوبي ، قضية تحرير سيا سي بحث .

أقول ذلك لأوضح أن فلسطين ليست مسؤولية الفلسطينيين وحدهم ، إننا جميعاً نحمل تبعاتها ، مسلمين ومسيحيين وعرب ، وبموجب كل من هذه الانتماءات السياسية والثقافية التاريخية والدينية . وأقول ذلك لأوضح في المقابل أن فلسطين ليست ملكاً لشعب فلسطين وحده ، وما يتنازل عنه أي من الكيانات السياسية التي صيغت لتمثله ، ليست له حجية شرعية علينا ، ولكن شريطة أن نكون على مستوى تحمل التبعة .

القدس كانت أرض صراع دام قرنين من الزمان ، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي الآن أرض صراع استكمل قرناً من الزمان ولم تظهر بعد فواتح انتهائه .

ونحن نعرف أن الصراع القديم والصراع القائم ليس صراعاً دينياً حضارياً فقط ولكنه صراع سيا سي أيضاً . ولكننا لا نستطيع أن نغفل عن الصبغة الدينية له ، فالقدس لا يمكن أن تستحيل إلى أنها محض موقع وعاصمة ، فهي ليست "برلين" يمكن أن تحل محلها "بون" في الضمير الألماني ، وهي ليست "استامبول" يمكن أن تحل محلها "أنقرة" في الضمير التركي . ولكنها "القدس" بغير بديل . وهي ليست أرضاً يستبد شعبها بتقرير المصير بشأنها ، ليست كذلك فقط لأننا مسئولون عنها يوم الحساب ، مسئولون عنها بوصفنا الديني ، بعد أن نجوز من الدنيا إلى الآخرة ، ومن العالم المشهود إلى عالم الغيب .

الماضي والحاضر مبدسوطان أماننا ، وما نعيه من ماضينا فهو حاضر معنا ، أو هو حاضر بنا في يومنا هذا . الحاضر وحده نقطة ، والنقطة لا اتجاه لها ولا معنى ، إنما نعرف اتجاهها مما قبلها ، أي أن الخط السابق عليها هو ما يبنى باتجاهها ؛ ومن هنا أهمية "حضور" الماضي وبُذوه في الإطار المعاش ؛ لأنه هو ما يرسم السياق ويكشفه .

قد يغفل كثيرون اليوم عن معرفة من هو "أحمد زكي باشا" لقد عاش بيننا في مصر من ١٨٨٤ إلى ١٩٣٤ ، وكان أديباً وسياسياً مستقلاً ، واشتهر "بشيخ العروبة" واشتهرت داره "بدار العروبة" لأنه كان من أوائل الدعاة لها . قضى السنين الأخيرة من حياته يكتب عن فلسطين ، وكان قد اشترك في تحقيق أحداث "حائط البراق" في ١٩٢٩ ، وهي أحداث جرت بين عرب فلسطين وبين صهيونيين اليهودية حول حائط المسجد الأقصى ، وكان من بدايات الصراعات

الدموية وقتها . كان أحمد زكى يسمى الأندلس "الفردوس المفقود" ورغم فائق اهتمامه بفلسطين ، لا أظن أنه دار بخلده أنه بعد عشرين سنة من أحداث حائط المبراق ستكون فلسطين الفردوس المفقود الثانى . وهذا جميل بهم -الكاتب العربى المخضرم - يسميها فى الخمدسينيات "فلسطين هى الأندلس الثانية" وعندما قال هذا القول لم يكن دار بخلده - فيما أظن - أنه بعد خمس عشرة سنة تقريباً ، فى ١٩٦٧ ، سنة الهزيمة الشهيرة سيكمل للصهاينة احتلال فلسطين ، وسيتوغلون فى أراضي جاراتها ويستكملون احتلالهم للقدس والمسجد الأقصى ، ثم بعد ذلك نصل إلى هذه الأيام التى نعيشها اليوم ونرى أن القدس تكاد تغفلت من أيدينا ، فالستوطنات اليهودية والتخطيط السكانى والسياسات اليهودية المعلنة .. كل ذلك يحدث عياناً جهاراً .

أنا أبعد ما أكون فى حديثى هذا عن حديث العجائز ، ممن يشكون الزمان ويضربون الأمثال ولكنى أقصد أن أوضح مخاطر واقع يأتيينا من الحاضر القريب ، حاضر خمسين سنة مضت أو ثلثى قرن ، إن شئنا أن نؤرخ لبدء محنتنا فى فلسطين بحادثة حائط المبراق ، وأن هذه المخاطر ليست متعلقة بشؤون السياسات الوطنية فقط ، ليست فقط مسألة استعمار وشعوب خاضعة ، ولكنها تتعلق بالتكون العضوى للجماعة الإنسانية ، وهى كذلك ليست متعلقة فقط بالشأن المدينى بالتاريخ والثقافة والتكوين القومى العام للجماعات ، ولكنها متعلقة أيضاً بالشأن الدينى ، وتبعاتنا الدينية العقدية . أى قصدت فقط أن أوضح مقدار المخاطر و حجم التبعية الملقاة علينا . ونحن لازلنا بإذن الله قادرين على المواجهة متمسكين بالحق ، ولا يزال ميزان القيم فى هذه المسألة بالمذاق سليماً بحمد الله .

إن القدس ، هى نقطة تجميع عجيب ، لقد جمعت العروبة والإسلام بغير تناقض ولا تضارب ، وهى أيضاً جمعت المسلمين والمسيحيين بتآلف وتشارك وبغير تنازع ، وهى تجمع أهل الدنيا فى بلادنا وأهل المدين ، وهى جمعت أقطارنا العربية المفككة وبلورت فى أهاليها الشعور المشترك بالخطر الواحد والمصير الواحد . هذا كله مما أذهب الله علينا به من طريق القدس ، وبقي علينا أن نتحول "المكنة" إلى "فُعلة" ونحن لازلنا صامدين ومرابطين .

وإذا نظرنا إلى الموقف على مدى عشرات السنين الماضية نلاحظ أن شعب فلسطين لم يعد ثمة قوام أو هيئة تشخصه منذ ١٩٤٨ ، فاحتلت إسرائيل ما احتلت وأسقطت الفلسطينيين فى أرضهم من حسابها ، هم أناس بغير هوية ولا تكوين . وسيطرت الأردن على القسم الباقى وكاد أن يضيع الفارق بين الأردن وفلسطين ، ومن وجهة أخرى كانت الأقطار العربية إما ممثلة من قوى أجنبية ، أو خارجة تواءم من احتلال كثيف مرهق ، وهى ضعيفة واهنة المفصل والعصب . وإسرائيل مدعومة من الغرب السائد فى العالم كله ومن كبيرة الاستعمار العالمى الفتى "الولايات المتحدة الأمريكية" ذات التجربة التاريخية "الرائدة" فى إبادة الهنود الحمر والحلول محلهم ، وتصويرهم على أنهم همج كنسهم التاريخ فى ترابه .

وظلت فلسطين وشعبها لا يكاد يسمع لهم حس أو يظهر لهم تكوين مشخص لهم ، وكانت قضية فلسطين هى تقريباً ما تتبناه الدول العربية المحيطة . ثم ظهرت منظمة التحرير الفلسطينية وقامت على سوقها بعد أكثر من عشر سنين فى أوائل الستينيات ، ونحن هنا لا نحكى التاريخ ولا نسرد وقائعه ، ولكننا نشير إلى الخطوط العامة . وهى تبدو فى عدة نقاط تبدو منذ قامت منظمة التحرير الفلسطينية .

أولاً : أنها جاءت حركة شتات ، قامت فى الأساس بقية زيادة وبأعضاء يقيمون فى المهاجر المختلفة للشعب الفلسطينى ويعتمدون فى الأساس على شعبية ترد من هذه المهاجر ، ويستخدمون أدوات عمل سياسية وأساليب تحرك ترتكن فى المحل الأول على الرأى العام العربى ، وبخاصة فى دول الجوار الفلسطينى ثم الدول العربية ثم الدول الإسلامية ثم حركات التحرر فى العالم غير الإسلامى ، وتعتمد على ضغوط هذا الرأى العام وحكوماته .

ثانياً : أنها منظمة تجاوزت فى نظر المتعاملين معها وصف التنظيم السياسى ووظيفته ، وبدت فى نظر هؤلاء بحسبانها الكيان المجدد والشخص للموطن الفلسطينى ، وكانت هذه الوظيفة مما يحتاج إليها جمهور الشتات الفلسطينى باعتبارها ممثلة للموطن البعيد الذى لا يحيون على أرضه ، وباعتبارها رمزاً للتماسك الجمعى للشعب توزع شتاتاً .

ثالثاً : أنها جاءت حركة تحرير وطنى بالصيغة التى كانت سائدة فى حركات التحرر على مدى الخمسينيات والستينيات التى تستهدف تحرير الأرض وإقامة نظام حكم اجتماعى على صورة نظم الغرب السياسية والاجتماعية .

كانت منظمة التحرير عند نشوئها ومع بقائها خطوة لا شك فى أهميتها ، من حيث حفظ القضية وحفظ الفلسطينيين المهاجرين من الذوبان فى الأقطار التى هاجروا إليها. وذلك برغم كل ما نعرفه من قصور وضمور وسلبات فى بناء المنظمة وسياساتها .

ومع هزيمة ١٩٦٧ ومع كل ما عانى منه العرب من بعد ، ومع معاهدات الصلح وانسحاب مصر من موقف القتال والاعتراف بإسرائيل ، ومع التصفيات الجسدية التى عانت منها المنظمة فى عدد من معارك الحروب والاعتقالات السياسية ومع التعقب الإسرائيلى لرجال

المنظمة فى لبنان وتهجيرهم منها إلى تونس - مع كل ذلك وفى سياقها ماذا جرى ؟!

فى عام ١٩٨٧ فوجئ العالم والعرب قبل غيرهم ، بأن عرب فلسطين فى داخل الأرض المضى المحتلة يتحررون ويجهدون ، وكان هذا تحولاً مهماً وحاسماً بدأ فى وجوه عدة : أولاً : ظهرت حركة تحرير من داخل فلسطين ومن شعبها المستقر على أرضها ، فكانت حركة "داخل" فى قياداتها وأعضائها وجماهيرها ، وصارت تستخدم القوة الذاتية لجماهير الفلسطينيين المقيمين بأرضهم ، وما يتبع ذلك من أدوات عمل سياسى وأساليب تحرك ، مغايرة إلى حد كبير لما كانت تصنع منظمة التحرير .

ثانياً : ظهرت بغير احتياج لأن تكون منظمة "معادلة" للوطن ، فهى تقف على أرض الوطن ، وتقوم داخل أرضها وتنتشر بين ناسها ، ومن ثم فإن ما أصاب منظمة التحرير من وهن وشحوب ، كانت حركة الداخل بريئة منه نوعاً ما .

ثالثاً : جاءت حركة الداخل مصطبغة بالصيغة الإسلامية ، وصار الطابع الإسلامى لها من الخصائص التى كانت قائمة فيها خلال العشرينيات والثلاثينيات وحتى ١٩٤٨ ، ثم ضم هذا الطابع مع حركة الخارج ، ثم عاد من جديد .

فرضت حركة "الداخل" الوطنية ذاتها على الواقع الفلسطينى . وفرضت خصائصها فى النظر العربى والإسلامى والعالمى ومثلت تحدياً كبيراً لمنظمة التحرير ولوضعها القيادى بين الشعب الفلسطينى ، وتحدياً لاعتبار المنظمة هى "الممثل الشرعى الوحيد" للفلسطينيين ، فى نظر من يتعاملون مع هذا الشأن .

ونحن يمكن أن ندرك من استقراء وقائع التاريخ الحديث لشعوب أقطارنا ، أن حركات التحرر الوطنى ذات التوجه العلمانى أو ذات الثقافة الغربية فقط كانت

مقاومتها للاستعمار تميل إلى المهادنة حيناً وإلى قبول أنصاف الحلول حيناً ، والكثير منها آل إلى الانتكاس بعد تجارب بدأت في العشرينيات بعد الحرب العالمية الأولى واستمرت حتى السبعينيات .. ومن الجلي أن حركة التحرر الفلسطينية لحقها ما لحق غيرها في هذا الشأن ، ولكن يضاف إلى ذلك سبب فلسطيني خاص ، وهو ظهور حركة تحرر إسلامية في فلسطين بالخصائص السابقة ، مما شكل تهديداً وتحدياً لم يكن في مقدور قيادة منظمة التحرير أن تطيقه ولا أن تستوعبه . وقد أدى ذلك إلى انهيار الموقف التحريري لهذه القيادة المسيطرة على أعنة القرارات فيها .

وأسهم في ذلك أن حركة "الداخل" أكثر ثباتاً واستقراراً وأكثر فاعلية من حركة تعمل في الأساس بقيادة من خارج الحدود ، وأن أدوات حركة الداخل في السياسة أفعال وأقل تكلفة ، وأن مخاطر الداخل تعصر رجال الحركة من الترهل والاسترخاء كما أسهم في ذلك - كذلك - أن منظمة التحرير فقدت في كفاح الأيام الماضية أبطالاً من خيرة من أنجبت قوة وشجاعة وإخلاصاً وعزماً وإنكاراً للذات . وإذا كان يُقال إن الحروب يخوضها الأبطال وينعم بثمار نصرها من ليسوا منهم ، فما بالنا بمن ينعم بثمار من حادوا عن الجهاد بغير نصر حققوه ، وركنوا إلى السلم بغير هدف كانوا نهضوا من أجله .

ونحن نعرف أن انهيارات حدثت في الموقف العلماني الوطني منذ السبعينيات في سائر أقطارنا ، وانهيارات حدثت للكثير من منظماته وهيئاته ، مما دفع المواطنين العلمانيين إلى اختيارات صعبة بين الصبغة العلمانية - والتي صيغت بها أهدافهم ، وبين الموقف الوطني التحريري الذي اتخذوه .

وفي هذا الإطار بدأت منظمة التحرير ، بما لاقتة من تحدي وطني هدد قيادتها للشعب وهدد وضعها باعتبارها "الممثل الشرعي الوحيد" بدأت المنظمة تستغرق في جانب

الولاء التنظيمي - ولو لم يكن مشخصاً للولاء الوطني - وتضع من أهدافها تحقيق الاعتراف الدولي لتكسب به قوة مواجهة ومركز ثبوت ، لا في مواجهة الدول الأخرى ولكن في مواجهة من رأتهم مزاحمين لها على تمثيل الشعب الفلسطيني . وصارت تنشد الاعتراف ولو من الخصوم ، خصوم حركتها التحريرية ، وصارت تصر على استجلاب الاعتراف ولو أدت مقابله من أهدافها ، صار ثمة إحلال للتنظيم بدلاً من الوطن ، ولم يعد لديها التنظيم هو رمز للوطن ، وإنما صار هو وطنها لا غير . لذلك أعلنت عن تشكيل الحكومة "في الخارج" منها هي ذاتها . فصادرت حق الآخرين في تشكيل مماثل ، ثم بوصفها حكومة فافوضت الإسرائيليين في "أوسلو" وأخذت منهم مكاناً في "الداخل" بمقابلين : أولهما - التنازل عن كونها حكومة أي دولة ، والاكتفاء بكونها "سلطة" فهي تنازلت عن الحكومة لا لشعبها ولكن للإسرائيليين ، والمقابل الثاني - هو أن تكون سلطة داخل ضد حركات التحرير الفلسطينية الداخلية .

وأهم ما نلاحظه من هذا النظر العام ، أن الأمر ما ضاق حتى اتسع ، وأن الأزمة ما اشتدت وأطبقت إلا وبدأ بصيص انفراج ، وأن النفس طويل ، وأنا أمام شعب حي .

أما عن الدول العربية ، فنحن نعرف أن مصر كانت هي أول من وضع معاهدة السلام مع الإسرائيليين في ١٩٧٩ ، بعد الزيارة العجيبة التي قام بها الرئيس أنور السادات لإسرائيل في أكتوبر ١٩٧٧ ، وبغض النظر عن الطريقة والأسلوب فإن عشرين سنة بعد هذا الحدث تكفي للنظر إليه نظراً شاملاً .

وأول ما ينبغي إدراكه هنا أن مصر والعروبة وكامب ديفيد في ١٩٧٩ ، تماثل تركيا والجامعة الإسلامية ومعهدة لموازن في ١٩٢٣ . توضيح المسألة أن الحرب العالمية الأولى أسفرت عن هزيمة الدولة العثمانية ، دولة

الخلافة الإسلامية ، واحتلت الجيوش الأجنبية أرضاً فى الأناضول وحاصرت قصر الخليفة فى استامبول ، وخلال المدة من ١٩١٩ إلى معاهدة لوزان فى ١٩٢٣ كانت الدولة العثمانية قد فصلت الخلافة عن السلطنة ، ثم ألغت الخلافة وتركت كل ما سوى الأراضى التركية ، وهنا حلت الجيوش الأجنبية عن أرضيها .. كانت مقايضة تاريخية هى جلاء القوات الأجنبية عن تركيا مقابل أن تترك الإسلام وتقطع كل صلة لها بالخلافة ودعاوى الجامعات الإسلامية ..

وتمت المقايضة : وفى مصر مع احتلال سيناء - فيما احتل من أراضى العرب فى حرب ١٩٦٧ - جرى الضغط على مصر بحسبانها كانت القاعدة لانطلاق دعوة الوحدة العربية وتجميع العرب تحت شعار واحد وسياسة واحدة ، فجاءت المقايضة التاريخية أيضاً وهى أن تجلو القوات الإسرائيلية عن الأراضى المصرية ، أى سيناء ، مقابل أن تتنازل مصر عن دورها العربى ودعاوى الوحدة العربية وجاءت اتفاقية كامب ديفيد فى هذا السياق .

ولكن الحقيقة - وبعد عشرين سنة - أننا نلاحظ أن السياسة المصرية لم تخضع لهذا المصير بذات الدرجة الكبيرة التى خضعت بها تركيا بعد مؤتمر لوزان ، إنما ألت السياسة المصرية إلى نوع من فتح النوافذ والمناورة والكر السياسى والفر ؛ لتسترد وضعها العربى بالتدريج وبما يتيسر منه حسب الإمكانيات المتاحة .

ومن جهة أخرى ، فإن معاهدة كامب ديفيد قد نقلت الصراع العربى الإسرائيلى من وضع الحروب النظامية التى تقوم بين جيوش دول إلى وضع آخر ؛ هذا الوضع الآخر أريد به من القوى الصهيونية والأمريكية أن يكون وضع سلام . ولكن الحادث أن المعاهدات والإتفاقات والاعتراف الرسمى بوجود دولة إسرائيل ، كل ذلك لم يذشئ السلام بمعنى أن الصراع لم ينفك ، إنما تحول إلى أشكال نشاط أخرى وحركات سياسية مغايرة ؛ تحول من صراع جيوش

نظامية إلى صراع جماعات ، أى صراع يعتمد - فيما يعتمد - لا على القرار العسكرى الحربى بمثل ما يعتمد على النشاط الشعبى ، ومن قضاياه عدم التطبيع أى رفض التعاون ، ورفض التعامل أى المقاطعة ، وذلك بـ صور تكاد تشبه أساليب الكفاح السلمى المشروع التى مارسها المصريون ضد الاحتلال البريطانى فى سنة ١٩١٩ ، ومارستها الهند بزعامة غاندى ضد الإنجليز فى فترة ما بين الحربين العالميتين .

ويتواكب مع هذه الأساليب من الصراع ، بين الشعوب العربية والإسلامية وبين الإسرائيليين - نوع أساليب الصراع الشعبى داخل فلسطين ، وليس من شعب عربى ويتصور أن فلسطين هى للفلسطينيين فقط إنما هى للعرب والمسلمين بعامه . وأكد أقول إنه ليس من حكومة عربية تعتقد أن فلسطين هى شأن الفلسطينيين وحدهم ؛ لأنه ليس من حكومة عربية إلا وتهتم بقضية الأمن القومى لها ولأرضها ، وإلا أحاطت بها المخاطر والمكاره وفقدت مبرر وجودها ..

وأمن فلسطين فى عروبتها وإسلامها هو أمن قومى لكل البلاد العربية المحيطة بها وغير المحيطة أيضاً ، إن إسرائيل وفلسطين يحوطها ما يسمى بدول الطوق وهى مصر والأردن وسوريا ولبنان ، وهذا طوق من شأنه دعم الحركة الفلسطينية وتطويق إسرائيل . لذلك فليس غريباً أن السياسات الأمريكية المؤيدة لإسرائيل والصهيونية ، أحاطت دول الطوق هذه بطوق آخر محاصر ، وهى العراق والسودان وليبيا ، لتكون دول الطوق المحاربة لإسرائيل محاطة بعوامل إضعاف مقصود ، ولتفقد دول الطوق عمقها السياسى والاستراتيجى فى حالات الحروب والصراع وحتى فى صور الصراع السلمى .

ومن جهة أخرى فإن إسرائيل لا تكف عن الصراع ولا ترضى بالسلام ولا تأمن للسلام ، وقد ارتفع شعار "الأرض

مقابل السلام" ، ورضيه العرب فى مدريد سنة ١٩٩١ ، ولكن إسرائيل لم تدبث أن رفضته وأحلت محلّه شعار "الأمن مقابل السلام" .. كان الشعار الأول يعنى أن إسرائيل تعيد الأرض للعرب ، وهم يعطونها السلام ، بمعنى أن السلام كان قراراً فى يد العرب يُعطونه بشرطهم أو لا يعطونه . أما الشعار البديل "الأمن مقابل السلام" فهو يعنى أن على العرب أن يقدموا الأمن لإسرائيل وهى من يعطيهم السلام.

صار السلام قراراً إسرائيلياً وليس عربياً ، والسلطة الفلسطينية التى حلت محل منظمة التحرير توافق على هذا الطرح فى اتفاقية "واى بلاتيشن" وتقبل أن تقوم بدور من يحمى إسرائيل من "إرهاب" الفلسطينيين .
والصراع محتدم ، والجهاد قائم ، والتنوع هائل ؛ وليست فلسطين الأندلس الثانية ، ولله سبحانه فى كل نفس ألف فرج قريب ... الحمد لله